الفلحس

اوشيخ المشايخ عند قدماء العرب
Le Phylarque chez les Arabes.

كان للرومان في ايام عزهم قطعة من بلاد العرب ضموا اليها ديار حوران واصطلحوا عليها « بالكورة الرومانية العربية » فامتدت في عهد انبساطها من حوران الى بصيرى (تصغير بصرى) في عربة . وكان في هذه الكورة ، او هذا الاقليم ، جماعات من امم مختلفة من عرب ويونان ورومان وسريان ونبط الى غيرهم . إلّا ان الجماعة الغالبة كانت العرب وكانوا ينقسمون الى قبائل وافخاذ ويعيشون عيشة اهل البادية . وكثيراً ما كان يتفق سيلهم من اراضيهم فيغزون ربوع الرومان وغيرهم وكان يسميهم اليونان والرومان «اهل الخيم» ومنها الكلمة الفرنسية Scénites ولما كان اغلبهم من الشراة اطلقوا عليهم جميعاً اسم الشرويين أكانوا من الشراة ام لم يكونوا ، وباللاتينية Saraceni

واقام الرومان على ابناء عدنان وقحطان رؤساء من جنسهم سموا الواحد منهم « فلرخس » اي Phylarchos (١) ومعناها شيخ القبيلة . وكان الشيخ مسؤولا امام حكومة الرومان عن كل ما يجري من الغزوات او من الاضرار في تلك القبيلة . وقد تم هذا النظام في المائة السادسة للميلاد . واول « شيخ أعظم » او « شيخ مشايخ العرب » اقامه الرومان كان شيخ قبيلة غسان ، وكان هؤلاء الرومان حاولوا مراراً وضع اساليب مختلفة ليتفقوا مع العرب فلم ينجح معهم إلّا الاسلوب المذكور اسلوب « شيخ القبيلة » او شيخ المشايخ وكانوا

١) الكلمة اليونانية منحوتة من حرفين هما : « فيلي Phyli» ونكتبها نحن Phulé اي قبيلة وهي تنظر الى « الفل » و« الفليل » بمعنى الجماعة والى « الفلى»(ككبرى) وهي الكتيبة المنهزمة ، والى « القبيلة » التي هي في الاصل « البل » لغة في « الفل » ثم دخلت عليها القاف ـ ومن الحرف الآخر هو « أرخس Archos» اى اول ورئيس وقائد . وهي تنظر الى كلمتنا « العرش » بمعناها . فقولهم: « فلرخس » كقولنا : «عرش الفل» اي رئيس القبيلة . ولو كان في لغتنا تقديم المضاف اليه على المضاف لقلنا« فلعرش» بمعنى فلرخس اي فلحس وهو :«شيخ مشايخ العرب » . فاحفظه .

قبل ذلك اعترفوا اعترافاً بين ظاهر ومقدر بعدة رؤساء عرفوا بلقب « شيخ » حتى قر رأيهم على جعل الامارة الكبرى في قبيلة غسان . وقد ذكر مؤرخو الرومان واليونان عدة شيوخ لعدة قبائل وفي وقت واحد وكل ذلك قبل اقرار لقب « الامارة الكبرى لغسان » القبيلة النصرانية العربية المشهورة .

وكثيراً ما كان الرومان يستنهضون العرب وشيوخهم للقيام على اعدائهم — وكانوا الفرس في اغلب الاحيان — فكان يثور الشيخ ومعه جيش عظيم وهم على ابلهم في بعض المواقع وعلى جيادهم في مواقع اخرى وهذا اذا كان دفع الخطر مما يجب ان يكون بسرعة عظيمة . اما اذا ذهبوا غازين فكانوا يذهبون راكبين هجانهم .

وكان الشيخ اذا انحطت حالته لضعف الم به او لقيام شيخ آخر ادهى منه واشد بأساً كان الضعيف يبقى في عقر داره ويطلب مطالب جليلة مفتراً بما كان له من العز والاباء حينما كان في سابق العهد آمراً ناهياً ومعترفاً بامارته . وكذلك كان يفعل ابناؤه .

ولا بد من ان اللقب اليوناني « فلرخس » اتخذه ايضاً الرومان بلفظه في لسانهم . ونظن ان السلف منا جاروا القومين المذكورين وادخلوه في لسانهم .

والذي عندنا انهم خففوه ليحملوه على وزن عربي فقالوا فيه « فلحس » (كجعفر) بحذف الراء . اما حرف الروم Ch فكثيراً ما ينقله الناطقون بالضاد تارة الى الخاء المعجمة وطوراً الى الحاء المهملة . وقد ذكرنا لذلك شواهد فلا حاجة لنا الى العودة اليها . (راجع لغة العرب ٨ : ١٩٠ و ١٩١) اذن نقلوه هنا الى الحاء المهملة وهذا اللقب كان معروفاً عندهم في زمن الجاهلية .

ومن غريب ما بلغ الينا من هذا القبيل المثل القديم الشائع عند كثير من الادباء والمؤرخين واللغويين وهو : « أسأل من فلحس » قال الميداني في مجمع امثاله (١ : ٣٠٥ من طبعة بولاق الاولى) : أسأل من فلحس ، ويروى أعظم في نفسه من فلحس . وهو رجل من بني شيبان كان سيداً عزيزاً يسأل سهماً في الجيش وهو في بيته فيعطى لعزه . فاذا اعطيه ، سأل لامرأته ، فاذا اعطيه سأل لبعيره . قال الجاحظ : كان لفلحس ابن يقال له زاهر بن فلحس . مر به

غزي من بني شيبان فاعترضهم، وقال : الى اين ؟ ــ قالوا : نريد غزو بني فلان. قال : فاجعلوا لي سهماً في الجيش . قالوا : قد فعلنا . قال : ولامرأتي . قالوا : لك ذلك . قال : ولناقتي . قالوا : اما ناقتك فلا ، قال : فاني جار لكل من طلعت عليه الشمس ومانعه منكم. فرجعوا عن وجههم ذلك خائبين . ولم يغزوا عامهم ذلك . وقال ابو عبيد : معنى قولهم : «أسأل من فلحس » انه الذي يتحين طعام الناس . يقال : اتانا فلان يتفلحس ، كما يقال في المثل الاخر : « جاءنا يتطفل » ففلحس عنده مثل طفيل» . انتهى كلام الميداني بمعناه .

قلنا : وهذا ما يؤيد رأينا في اصل كلمة الفلحس ويثبت قدمنا فيه ويقوي رأينا ان الكلمة دخيلة في لغتنا . فتنحصر اذن الادلة في ما يأتي :

١ــ الفلحس ليس في اصله اسم علم انما كان لقباً .

٢ــ ليس في مادة ف ل ح س ما يؤيد معنى هذا العلم لو كان في اصل وضعه علماً .

٣ــ ان الاعلام كثيراً ما يكون اصلها نكرة ثم يسمى بها اناس او تغلب على اناس ومن جملتها هذا .

٤ــ يظهر من كثرة سؤال فلحس انه كان في الاصل شيخاً عزيزاً مطاعاً وقد وجد شيوخ كثيرة في بني شيبان اعترف بهم الرومان ولعل هذا واحد منهم . وشيبان كانت مصافية لبني الاصفر .

٥ــ اعطاء بني شيبان أسهماً لفلحس لم يكن إلّا عملا بخضوعهم لامارته عليهم وإلّا جاز لهم ان يردوه او ان لا يغزوا لكي لا يجيبوا طلبه .

٦ــ ان عمل زاهر ابنه يشبه عمل ابيه ويثبت ما نقله التاريخ عن تحكم شيوخ القبائل وابنائهم في من ينتسبون اليهم من الامراء .

٧ــ ان توسع اللغويين في معنى فلحس كتوسعهم في معنى طفيل وتطفل فتصرفوا في الكلام المعرب كما تصرفوا في غيره . ألم يقولوا نيرز من النيروز وتفلسف من الفلسفة الى غيرهما مما لا يحصى ؟

٨ــ ذكر اللغويون الفلحس مرة باداة التعريف ومرة بدونها وهذا يلمح الى ان اصل وصفها نكرة كالحسن والحسين والفضل ونحوها .

٩ــ اننا في رأينا هذا لا نريد ان نكره احداً على متابعته ، انما نبوح بما وقع في صدرنا بهذا الخصوص وكنا قد عرضنا هذا الرأي قبل نحو عشر سنين على الاستاذ الدكتور ارنست هرتسفلد فصوبه واستحسنه وكتب الينا رسالة نحفظها في سجلاتنا .

١٠ــ فسر ابن دريد في كتاب الاشتقاق جميع اعلام الرجال والنساء من العرب ولم يتعرض لتفسير الفلحس ونظن ان ذلك لاعتباره اعجمياً .

١١ــ ان الفلحس من الالقاب القديمة او اعلام الجاهلية ولم نره علماً لواحد من الاسلاميين .

١٢ــ لا يمكننا ان نتصور عدم وجود لفظة في لغتنا تعني شيخ المشايخ او رئيس القبيلة او الامير الاكبر للقبيلة ونرى ان هذه الكلمة هي التي كانت تعرف عندنا قبل الاسلام ، إلا انها دثرت مع ما دثر من الالفاظ القديمة التي مات من كان يعرف معانيها . فقد قال ابن فارس : « ان لغة العرب لم تنته الينا بكليتها وان الذي جاءنا عن العرب قليل من كثير وان كثيراً من الكلام ذهب بذهاب اهله . وذهب علماؤنا او اكثرهم الى ان الذي انتهى الينا من كلام العرب هو الاقل . ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير . واحر بهذا القول ان يكون صحيحاً . لاننا نرى علماء اللغة يختلفون في كثير مما قالته العرب فلا يكاد واحد منهم يخبر عن حقيقة ما خولف فيه ، بل يسلك طريق الاحتمال والامكان » . (راجع فقه اللغة طبع بولاق ١ : ٣٤) .

١٣ــ لو فرضنا ان كل هذا المقال مبني على خيال صرف لوجدنا في نفوسنا حاجة الى لفظة تعني معنى « شيخ المشايخ او امير المشايخ » واحسن كلمة تقوم بهذا الغرض «الفلحس» لاجتماع القومين المتمدنين منذ القدم على اتخاذه . ولا يمكننا ان نقول « فلرخس » لثقله . بل نقول « فلحس » اقراغاً له في قالب عربي خفيف على الذوق وعلى السمع معاً .

النتيجة

فلحس كلمة قديمة اصل معناها « شيخ القبائل » ومنصبه يعرف بالفلحسة اي Phylarchie .